

خالد حوراني*

حسن حوراني.. القبطان النائم



وبدأنا نتورط عاطفياً في خصوصياته كلها، فنقرأ ملاحظاته وتعليقاته ورسائله، ونعاين رسوماته ومخططاته، حتى خربشاته ومواعيده.

لم يعد حسن موجوداً بيننا ليعطينا من ثقل النيش في حياته وذاكرته. فبصفتي شقيقه الأكبر والعارف بمشاريعه الفنية، قبلت بالمهمة، ولأن محمود صديقنا الذي يعمل في مؤسسة القبطان، هو المتابع مع حسن مشروع إصدار الكتاب منذ زمن، فقد

قبل إصدار كتاب "حسن في كل مكان" عن مؤسسة عبد المحسن القبطان في سنة ٢٠٠٦، كان علينا، محمود أبو هشيش وأنا، خوض تجربة من نوع خاص، لإعداد الكتاب الذي كان يعمل عليه حسن، ورحل قبل إنهائه، فقد تحتم علينا اقتحام عالمه الخاص، حقائبه ودفاتره وصوره ورسوماته المتعددة. ولم تكن مهمتنا تجميعاً سهلاً من هنا أو هناك لمادة الكتاب، إذ لم نجد مادة مرتبة ومنتهية كي نخرجها إلى النشر كما اتَّفَق، وإنما كانت مهمة بحث صعبة بين أشياءه المتنوعة.

* فنان تشكيلي فلسطيني.

شاركني في المهمة.

كنت كَمَن يتعرف إلى شقيقه من جديد، وكَمَن يتعرف إلى فنان بعمق أكبر، لكن بعد أن رحل مبكراً عن الدنيا. لم يسعفنا الوقت قبل الرحيل للتعرف كشقيقين، على التطورات والتجارب والهواجس والصراعات التي يخوضها كلانا. تصرّفنا كأن العمر كله أمامنا كي نتناقش أكثر ولیطلعني على أفكاره وخطه في الحياة وعلى مشروع الكتاب. اتفقنا بعد عودته من نيويورك، على سهرة عندي "للصبح" نحكي ونحكي ونتوقف عند تجربته الفنية وتجربتي، لكنه بعد ٢٨ يوماً رحل، وتركني أتوه بين آلاف النصوص والمقتنيات والصور. هل أقرأها بعين الباحث الذي يُعدّ كتاباً للنشر، أم أتوقف عندها وأشاهدها وأتفاعل معها كشقيق يندش وهو يمسك بفرشاة أسنان أخيه الأصغر، وتتسارع دقات قلبه وهو يمسك بيديه بطاقة هويته؟

بداية، وأنا في خضمّ مشاعر الحزن والأحاسيس التي ألمّت بي جرّاء حالة الفقد، ترددت في قبول مهمة الباحث؛ إذ كيف لي أن أجمع بين الأمرين؟ ستكون شهادتي عن حسن مجروحة ومفعمة بالشوق والحنين والحزن. كدت أقول بصوت عال أنني أسف وأنني أحبه، لكنني قبلت بالمهمة.

قمنا بترتيب المواد بحسب نوعيتها: النصوص، والرسوم، والملاحظات، والصور، ودفاتر الاسكتشات التي خُطّ ورسم فيها ملاحظات مهمة تتعلق بكتابه، فضلاً عن عدد كبير من الأوراق الخاصة. كان علينا عزل مادة الكتاب عن بقية الأشياء والمشاريع الأخرى، وتوقفنا عند مشكلة الفهرس والخطبة التي أرادها حسن لكتابه. ماذا لو كانت خطة الكتاب في رأسه؟ غيرنا من صيغ الفرز أكثر من مرة، لا لنربط بين الرسوم والنصوص بحسب عناوينها فقط،

بل لنستبعد أيضاً المواد غير الملائمة من الكتاب فنعالجها لاحقاً.

غرقنا في رحلة البحث والتفتيش عدة أشهر، وكان عليّ أن أقرأ نصوصه ورسائله الموجهة إليّ كاملة، علاوة على كتاباته التي ليست ذات صلة بالموضوع. أخيراً، وجدنا الدليل وهو ورقة صغيرة بخط اليد فيها أسماء القصص وترتيبها. هذا هو الفهرس إذاً، فأين النصوص وأين رسوماتها؟ اعتمدتُ على الذاكرة، ولاحظنا تردده في وضع اسم الكتاب وعناوين النصوص، ورَجَّحنا أنه كان ينوي القيام بتلوين الرسوم التي أعدّها بالكامل وطبعها على قماش الرسم بعد أن رسمها بقلم رصاص على كرتون بالحجم الحقيقي للوحة. وكان كل ما علينا أن نفعله تتبّع الرسوم المنجزة والبحث عن النص الذي يرافقها، لأن النصوص كثيرة، أمّا الرسومات المنجزة فكانت ٣٦ رسمة، خمس منها فقط ملونة. أردنا أن نترك لحسن كتابه كما أراد من دون أي تدخل يُذكر.

أخيراً، صدر كتاب حسن حوراني، "حسن في كل مكان"، في سنة ٢٠٠٦، بعد وفاته بثلاثة أعوام. والكتاب يحتوي على ٣٦ لوحة، و٣٦ نصاً قصيراً أعدّها حسن على نار هادئة في برد مدينة نيويورك حيث كان يقيم. تبدأ الرسومات برحلة الطفل حسن منذ تكوّنه جنيناً في بطن أمّه، حتى إكماله ٢٩ عاماً، هي كل ما عاشه من حياة في هذه الدنيا. حياة قصيرة لكنها ملأى وغنية بالتفاصيل. كأنه تنبأً بدنو أجله، فروى قصة حياته القصيرة بالرسم والكلمات، وقَدّم رؤيته إلى الحياة بتعبيره الفني، وأراد أن تكون أثراً يتركه.

قَدّم سيرة طفل فلسطيني ولد في الخليل وتعلّم الفن في بغداد، وتنقّل بين رام الله وعمّان ونيويورك قبل أن يقضي في بحر

كأنه في سباق مع الزمن، يرسم ويكتب باستمرار، وينجز أعماله كأنه أراد أن يعطي كل ما عنده في أسرع وقت.

حسن يسكنه طفل. كان يصوّر ويروي كأنه واحد غيره. قدّم لوحة الطفل الذي كانه بعين الثالثة، إذ تخيل كيف كان في بطن أمه، محاطاً بالفراشات والأسماك والماء، في مدار القمر ودوراته المتعاقبة، والليالي والأيام والأشهر تمر على حمل الأم؛ لوحة أخرى تقدّمه وهو يطل من على شرفة دار العائلة برفقة أبيه في حارة "العقابة" في مدينة الخليل، ولوحة تصوّره وهو يركب دراجته الخرافية، ويحلّق فوق مدينته التي فارقها.

ومثلما يلاحظ، فإن الرسوم والنصوص لا تسرد هنا قصة طفل عاش في مدينة تحت الاحتلال كما في الواقع، فهو لا يتحدث في لوحاته عمّا تعرّض له هو عائلته من اعتقال ومنع وعقاب وهجرة من قرية "المسمية" الصغيرة (جنوبي غربي مدينة الرملة)، وتجاهل هدم منزل العائلة الذي ترافق مع اعتقال الأب ونفي الأخ الأكبر خارج فلسطين. تجاهل الهدم وكل ذلك عن قصد، ورسم البيت سالماً بعين الطائر.

حسن، فنان جرب ومارس وأنجز أنواعاً متعددة من المشاريع الفنية التي تراوحت بين الرسم والتركيب في فراغ، والنحت، والتصوير، والكتابة، ليذهب في ثنايا الوجود والطبيعة كطفل من دون أن يتمكن هذا العالم من كبح روحه وتشويش ألقها وعنفوانها، ومن دون أن يتمكن الاحتلال ووحشيته من احتلال نصّه وكيونوته ومنعه من التحليق في الكون الواسع. حسن يترك هنا لغيره وللأرشيف والوثائق التاريخية أن تقول ذلك، ويكتفي بزرع بستان ورود، ويغزل من عين الشمس فراشاً يستلقي عليه. رحلات حسن تنتهي فجأة، لكنها لا

يافا في حادث غرق مأسوي مع ابن اخته الفنان سامر أبو عجمية في ٦ آب / أغسطس ٢٠٠٣. جاء في تقديم كتاب "حسن في كل مكان" الصادر عن مؤسسة القطان ما يكتّف تجربته القصيرة والغنية:

يفيض هذا الكتاب بالجمال، والحب، والحكمة، والخيال، والحياة، ببساطة فذة. كأنه سيرة استثنائية لشخص استثنائي. لم يكن نرجسياً بقدر ما كان يرى نفسه تتغلغل في كل تجليات الوجود. لا يوغل هذا الكتاب في المتخيل - وإن بدا كذلك - بقدر ما يعكس إيمان صاحبه العميق بنفسه، وبقدرته على التجاوز، وبطاقة الحب والحياة التي سكنته حتى لحظة رحيله المبكر. آمن حسن أن لديه ما يقوله لهذا العالم، فبدا القول وكأنه خلق لأسطورة ذاتية تنزع إلى إعادة بناء صلة الإنسان بالكون، وإعادة الاعتبار إلى الوجود والكائنات، في عالم تنفصم فيه علاقة الإنسان بما حوله. إنه اقتراح جمالي وإنساني وأخلاقي يقدمه فنان لم تفقده قسوة الواقع طراجة الطفولة، وتحليق مخيلتها، وبراءتها، وإن كانت قد علّمتها حكمة مبكرة.

سيرة سطرها حسن بتوهّج ورومانسية، حلّق فيها فوق الغيوم وركب الموج وغاص في أعماق البحار.

كان الرسم والتلوين شغله الشاغل الذي وجد فيه موهبته منذ أعوامه الأولى. شارك في عدة معارض قبل سفره للدراسة في كلية بغداد للفنون الجميلة، وأنجز العديد من الجداريات والرسوم المتنوعة. انطلق حسن

تُقرأ بمعزل عن نشاطه ومصيره، وعن الظلال التي خلفها موته المبكر، لا لتترك جرحاً عميقاً في القلب وحسرة، وإنما تُخلف فرحاً يجعلنا نحتفي بالحياة والطيور والشجر، وهي التي تشحن حسنا الإنساني بالقدرة على الحب، حب الحياة والنمل والديناصورات.

تأمل حسن الكون الكبير من ثقب باب، ومن قطرة ماء تحطّ على الخضرة. تجاهل السجن وهو الضحية، وتعاطف مع سمك البحر، وتجاوز القهر ليكتب لغز البشري الذي فيه. رتق ثقب السماء وحرّر نجمة.

ومن المفارقة أن تصبح إحدى أشهر لوحاته وهو يركب الموجة، والتي تحمل عنوان "حسن والقمر الصغير"، دالة على فنان مات غرقاً؛ خطفه البحر وقضى من دون أن نفهم مغزى حضور السمك في لوحاته؛ السمك والدمع الذي من الصعب أن نراه أو نلحظه في قاع المحيط كما في لوحة "الدمعة الحزينة".

سرير مربّع، به سمك كثير، به موج البحر وشبكه، وأنا قبطان نائم.

عبارة وجدناها في دفتر بخط يده. هكذا هجس حسن، وهكذا نحتنا نحن تلك المقولة على شاهد قبره لتعرّف عليه.

"حسن في كل مكان؛" سيرة "الشاطر حسن" كما أطلق عليه الشاعر أحمد دحبور في أثناء تقديمه للكتاب، تشغل الصحافة والإعلام بعد أن ألغت وزيرة الثقافة الإسرائيلية "ميري ريغف" رواية "الجدار الحي" للكاتبة الإسرائيلية دوريت روبينيان من المنهاج الأدبي الإسرائيلي لطلاب شهادة الثانوية ("البغروت")، بذريعة أنها تشكّل خطراً على هوية الطلاب اليهود

الإسرائيليّين، وتشجّع على انصهار اليهود مع غيرهم. رواية حظيت بحفاوة وترجمت إلى أكثر من لغة، وهي تصف من وجهة نظر الكاتبة قصة حب مفترضة ولقاء جمعها بالفنان الفلسطيني حسن قبل عودته إلى البلد. رواية تستحق التأمل، لا لكونها تصوّر الفلسطيني خلافاً للصورة النمطية السلبية المتأخرة التي قدّمها الأدب ومناهج التعليم الإسرائيلية عن الفلسطيني، وخلافاً لثقافة تتجاهل الفلسطيني، وتساوي وجوده مع عدمه، وإنما لكونها تسلط الضوء على نوع أدبي يُعرّف على الإسرائيلي وهو يكتشف هويته، ربما بسبب حيثيات وجود الفلسطيني الملتبس في نظر الإسرائيلي، وربما بافتراضه شبحاً أو ميتاً أو غير موجود أصلاً. رواية لم يشارك حسن في سردها قطعاً، ولم يترك له الموت المفاجئ ليقول بنفسه قصته عن هذه العلاقة. يضجّ العالم بالفضاعات والخوف، وبالمقالات والتحقيقات والروايات عن حسن، بينما يسترسل هو كقبطان نائم. كأنني به يقول كما قال جلال الدين الرومي في ديوان "المثنوي": "ما دمت لا تملك عينين في قلبك أيها العنود، فإنك لا تعرف الحطب من العود".

حسن حوراني

- مواليد مدينة الخليل في سنة ١٩٧٤.
- تخرج من أكاديمية بغداد للفنون الجميلة في العراق في سنة ١٩٩٧. درّس الفنون في كلية مجتمع المرأة بالطيرة / رام الله مدة عام، ثم تفرّغ للفن. وفي سنة ١٩٩٩، شارك في أكاديمية الصيف الفنية في عمّان مع الفنان مروان قصاب باشي.
- حصل على جائزة "الفنان الشاب" لسنة ٢٠٠٠ عن عمله الإنشائي "منا وفينا"،

وكوريا، وبنغلادش.

● أطلقت مؤسسة عبد المحسن القطان اسم الفنان حسن حوراني على جائزة مسابقة الفنان الشاب لسنة ٢٠٠٤ و٢٠٠٦.

● نُشر عنه وعن أعماله العديد من المقالات في الصحف العربية والعالمية، ونُشرت رسوماته على نطاق واسع في سنة ٢٠٠٤ في العدد ٦٦ من "كتاب في جريدة"، الذي تصدره كبريات الصحف العربية بالاشتراك مع منظمة "اليونسكو".

● يحتوي كتابه "حسن في كل مكان" على ١٠٠ صفحة من القطع الكبير، وهو من تصميم وإشراف: شريف واكد وخالد حوراني، ويتضمن ٣٦ لوحة فنية، و٣٦ نصاً أدبياً. ■

ثم سافر إلى الولايات المتحدة الأمريكية حيث عمل في مجال الفن، وعكف في مدينة نيويورك على إنتاج كتابه "حسن في كل مكان"، بعد حصوله على منحة فنية من مؤسسة عبد المحسن القطان.

● عاد إلى فلسطين في ٢٥ تموز / يوليو ٢٠٠٣ لإتمام الكتاب وطباعته، لكنه توفي في حادث غرق مأسوي مع ابن شقيقته سامر أبو عجمية في بحر يافا في ٦ آب / أغسطس ٢٠٠٣.

● أنتج خلال حياته القصيرة كثيراً من الأعمال والمشاريع الفنية في مجال الرسم، والتركيب في فراغ، والفيديو، ونظم وشارك في العديد من المعارض في القدس، ورام الله، والخليل، وبغداد، وعمّان، والقاهرة، ونيويورك، والإسكندرية، والشارقة، وقطر،

من منشورات مؤسسة الدراسات الفلسطينية

سيرة جابي برامكي وتجربته في جامعة بيرزيت

(٢٠١٢ - ١٩٢٩)

عبد الرحيم الشيخ

١٢ دولاراً

٣٧٥ صفحة

